نبوليون والعلم والعمران

(٢)

اشرنا في الجزء الماضي الى اهتمام حكومة فرنسا (الديركتوار) بابقاء نبوليون بعيداً عنها فعينتهُ قائداً للجيش الذي عزمت ان تغزو بهِ انكلترا. والظاهر انها خافت منهُ فعلاً فقصدت ابعادهُ عنها. قال الاستاذ سيلي المؤرخ فيما كتبهُ عن نبوليون في الانسكلوبيذيا البريطانية انهُ عاد الى باريس بعد ان فاز في ايطاليا فوزاً لا نظير لهُ وعمرهُ ٢٧ سنة. ولما احتفل بهِ رجال الحكومة خطب فيهم واشار اشارة صريحة الى انهُ كان عازماً على قلب الحكومة الحاضرة وانشاء حكومة جديدة مؤسسة على قوانين جديدة ثابتة ومن ذلك قولهُ «متى توطّدت سعادة الشعب الفرنسوي على افضل القوانين حينئذٍ تنشر الحرية لواءها على ممالك اوربا كلها». فاوجست حكومة الديركتوار منهُ شرًّا وعزمت على ابقائهِ بعيداً عنها فعينتهُ قائداً اول للجيش الذي عزمت ان تغزو انكلترا بهِ (Général en chef de l'armé d'Angleterre) فلم يرضهِ ذلك في اول الامر وفضل ان ينتظم في سلك رجال الادارة ويصير مديراً من المديرين ولكنهُ رأى ان ذلك ضرب من المحال لانهُ يجب ان يكون عمر المدير اربعين سنة على الاقل

وقال الكولونل كلين فيما كتبهُ عن نبوليون في سكلوبيذيا تسبرس انهُ كان قد اخذ يفكر في انشاء مملكة شرقية عظيمة لانهُ كان يتخيل الممالك الشرقية رافلة في حلل المجد والبهاء خوّل ما اعدتهُ الحكومة من قوة تحارب بها انكلترا الى حملة يفتتح بها مصر فتكون مفتاح مملكة شرقية وقضاء مبرماً على سلطة انكلترا. ولم يكن غرضهُ الاقتصار على فتح مصر بل كان يقصد استعمارها فقد قال انهُ اذا سكنها اربعون او خمسون الف بيت من الاوربيين وادخلوا اليها صنائعهم وشرائعهم وادارتهم صار خروج الهند من قبضة انكلترا اسهل من خروجها منها بالحرب وتتجزأ حينئذٍ السلطنة العثمانية ويزول ظلها كما زال ظل البندقية بقهر النمسا وتكون بلاد مصر وبلاد اليونان من نصيب فرنسا

وقال الدكتور سورلي في الطبعة الاخيرة من الانسكلوبيذيا البريطانية ان ليبنتز (الفيلسوف الالماني) اشار سنة ١٦٧١ ان تستولي فرنسا على مصر قصد

اشغالها بها عن المانيا . وكتب بوينبرج Boyneburg الى الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا ان فتح مصر يمكّن فرنسا من محق تجارة هولندا في الشرق وبعث مع كتابهِ رسالة من ليبنتز في هذا المعنى ثم كتب ليبنتز مفصلاً رأيهُ ولكن لا دليل على ان ما كتبهُ وصل الى ملك فرنسا ولا على ان نبوليون اطلع عليهِ الاّ سنة ١٨٠٢ اي بعد دخولهِ مصر باربع سنوات . ولا شبهة في ان غرض نبوليون كان مقاومة انكلترا وانشاء مملكة شرقية فلم يجد من رجال فرنسا الاّ تمام الرضا

وكان العالمان مونج Monge الرياضي وبرتوله Berthollet الكيماوي من اصدقاء نبوليون وكان يحضر خطب برتوله في الكيمياء . والظاهر ان برتوله اشار عليهِ باستصحاب من استصحبهُ من العلماء الى مصر . وكان في فرنسا حينئذٍ جماعة من اكبر العلماء فاحضر معهُ اثنين من علماء الفلك واربعة من علماء الهندسة وواحداً من علماء الجيولوجيا وواحداً من علماء الكيمياء وثلاثة من علماء الطبيعة وستة من المهندسين المدنيين . وكان في سفرهِ من طولون الى الاسكندرية يباحث هؤلاء العلماء في المسائل العلمية والدينية مثل حل السيارات سكونة وكم عمر الارض وهل تخرب اخيراً بالنار او بالماء

وكان قد انتظم في سلك المجمع العلمي الفرنسوي (الانستي) فانشأ مجمعاً مثلهُ في القطر المصري وجعل مونج رئيساً لهُ وفوريه الرياضي سكرتيراً ورضي هو ان يكون نائب رئيس . واناط باعضاء هذا المجمع مساحة الارض ورصد الافلاك ودرس احوال النيل وتحسين المزروعات وعمل البارود . وكان يلقب نفسهُ في تواقيعهِ « عضو المجمع العلمي والقائد العام لجيش الشرق » فيقدم عضوية المجمع العلمي على قيادة الجيش

ندع الآن هذا الموضوع الراقي النافع لنوع الانسان ونلتفت الى الموضوع الآخر الذي جاء نبوليون لاجلهِ الى هذا القطر وهو الموضوع الحربي المشحون بالاخاديع . ومتى كان الغرض تنازع البقاء عاد الانسان الى الفطرة الوحشية التي نشأ عليها اسلافهُ مدة الوف من القرون

قامت الحملة من طولون في التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٨ وفيها ٣٥٠٠٠ مقاتل واخذت مالطة في طريقها من فرسان مار يوحنا في ١٢ يونيو ووصلت الى الاسكندرية في ٣٠ يونيو وكان الاميرال نلسن الانكليزي قد درى بقيامها فتبعها بالعمارة الانكليزية ووصل الى الاسكندرية قبلها ولما لم يجدها عاد يفتش عنها

وقد فصّل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي نزول مصر كيفية وصول نبوليون الى القطر المصري وما فعلهُ فيهِ تفصيل مطوّل منصف ملأ بهِ نحو مئتي صفحة من تاريخهِ المتع فاقتبسنا منهُ الفقرات التالية. وما وضعناهُ بين قوسين فهو مما قال ما خلاصتهُ

وفي يوم الاحد العاشر من شهر محرم الحرام سنة ١٢١٣ (الموافق ٢٤ يونيو سنة ١٧٩٨) وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الاسكندرية مضمونها ان مراكب انكليزية وصلت الى الثغر ووقفت بعيدة بحيث يراها اهل المدينة وأتى منها قائق صغير وفيهِ عشرة رجال فنزلوا الى البر واجتمعوا بكبار المدينة ورئيسهم اذ ذاك السيد محمد كريم وقالوا انهم انكليز جاءوا للتفتيش على الفرنسويين لان الفرنسويين خرجوا بعمارة كبيرة وربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم. فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن انها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن. فقالت رسل الانكليز نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم الاّ الامداد بالماء والزاد بثمنهِ. فلم يجيبوهم الى ذلك وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا. فعندها عادت رسل الانكليز واقلعوا في البحر ليتاروا من غير الاسكندرية وليقضي الله امراً كان مفعولاً.

ثم ورد في ثالث يوم بعد ورود المكاتبات الاولى ان المراكب عادت راجعة فاطمأن الناس وسكن القيل والقال. واما الامراء (اي امراء المماليك) فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكترثوا لهُ اعتماداً على قوتهم وزعمهم انهُ اذا جاءت جميع الافرنج فهم يدوسونهم بخيلهم. ويوم الاربعاء في العشرين من محرم وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بانهُ يوم الاثنين في ١٨ محرم وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ونزلت جماعة من رجالهم في جهة المعجمي ومعها آلات الحرب والعساكر فخرج اليها اهل الثغر ومن انضمّ اليهم من العربان وحاربوهما فدارت الدائرة عليهم. واخيراً طلب اهل الثغر الامان من الفرنسيس فامنوهم

وتبسط الجبرتي في كيفية سير الجنود الفرنسوية الى ان استولت على القاهرة واوقعت بالمماليك في معركة الاهرام ودخل نبوليون القاهرة في ٢٤ يوليو واهتم بتنظيم الحكومة. ولكن الاميرال نلسن عاد الى الاسكندرية وحطم الاسطول الفرنسوي في معركة ابي قير في اول اغسطس فاسقط في يد نبوليون ورأى ان ما قدرهُ من انشاء سلطنة شرقية ليس سهل المنال لكنهُ فكّر في اخذ سورية

والقضاء على الدولة العثمانية ومن ثم يعود الى اوربا بطريق بر الاناضول فحمل على سورية في شهر فبراير سنة ١٧٩٩ باثني عشر الفاً لكن عكاء وقفت في طريقه بمساعدة الاسطول الانكليزي فاضطر ان يعود الى مصر وبلغهُ حينئذ ان الدائرة دارت على الجنود الفرنسوية في بعض المعارك الاوربية فاقام الجنرال كلابر نائباً عنهُ واقلع قاصداً فرنسا في ٢٢ اغسطس فوصل اليها بعد ستة اسابيع وبعد مغادرتهِ مصر انتهى الجنود الانكليزية والعثمانية فناوشت الفرنسويين ثم عقد الصلح بينها وبينهم على انهم يخرجون من مصر وتسلم البلاد للدولة العثمانية

ومما هو جري بالنظر الخطط التي يستحضر رجال الحرب خصوصاً ورجال السياسة عموماً توصلاً الى اغراضهم. قال الجبرتي ان نبوليون (او بونابرته كما كان يكتب اسمهُ) لما احتل الاسكندرية كتب مرسوماً وضعهُ وارسل منهُ نسخاً الى البلاد التي يقدم عليها . وهو طويل وقد اثبتهُ الجبرتي بحروفهِ فاخذنا منهُ بعض فقراتهِ وهي

« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد لهُ ولا شريك لهُ في ملكهِ من طرف الفرنسوية المبني على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرّف اهالي مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يعاملون بالذل والاحتقار ابناء الملة الفرنسوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدي فحضرت الآن ساعة عقوبتهم . . . . قد قيل لكم اني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوهُ وقولوا للمفترين اني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين واني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانهُ واحترم نبيهُ والقرآن العظيم . . . ايها المشايخ والقضاة والائمة واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضاً مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية الكبرى وضربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الاسلام . . . والفرنساوية في كل وقت من الاوقات كانوا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني واعداء اعدائهِ ادام الله ملكهُ » الخ

ولما كان نبوليون محاصراً عكاء اتت منهُ كتب كثيرة الى مصر نشرها الجبرتي وهي تشيد بفوزهِ وترحيب اهالي البلاد المجاورة بجنوده . ومما جاء في بعضها قولهُ « عند وصول كتابنا هذا اليكم تكون قد ظفرنا بقلعة عكاء . . . واما بقية اقليم

الشام وما يلي عكاء من البلاد فانهم لنا طائعون وبالاعتناء ومزيد المحبة راغبون يأتوننا بكل خير عظيم ويحضرون الينا افواجاً بالهدايا الكثيرة والحب الجسيم من القلب السليم وهذا من فضل الله علينا ومن شدة بغضهم لجزار باشا . ونخبركم ان الجنرال يونون انتصر على اربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام خيالة ومشاة فقابلهم بثلثماية عسكري بيادة من عسكرنا وانتصر عليهم واوقع منهم نحو ستماية نفس

ويظهر مما اوردهُ الجبرتي من هذا القبيل ان الاخبار الرسمية كانت تنشر على علاتها تهدئة للخواطر وقد تكون ملفقة في مصر وكانت الاخبار الصحيحة تأتي معها لكي يكون رجال نبوليون على بينة من امرهم. من ذلك ان الخبر الرسمي الذي اذيع عن السبب الذي جعل نبوليون يعود الى مصر مفادهُ انهُ ضرب عكاء واستولى عليها واغرق سفن الانكليز وغنم مدافعهم وان شوقهُ الى مصر حثهُ على العودة اليها مسرعاً. اما الخبر الصحيح الذي نشرهُ الجبرتي ايضاً فمفادهُ ان الانكليز وصلوا الى عكاء وحصنوها واستولوا على المراكب الكبيرة التي ارسلت الى نبوليون بالمدافع من الاسكندرية مدداً لهُ وان الطاعون فشا في جنودهِ وان البلاد حول عكاء استخرابا لامبرة فيها وان معاهدة الصلح بين فرنسا والنمسا نقضت الى غير ذلك من الاسباب الصحيحة التي قال الجبرتي ان نبوليون كتب بها الى رجالهِ في مصر

ومن هذا القبيل ما ذكرهُ الجبرتي في الصفحة ١٩٤ من المجلد الثالث من تاريخهِ وهو نص كتاب قال وكيل الديوان انهُ من ساري عسكر منو بعث بهِ الى مشايخ الديوان فقضهُ رئيس الديوان وناولهُ الى الترجمان فقرأهُ والحاضرون يسمعون. وذكر الجبرتي صورتهُ ثم اردفهُ بقولهِ « وهو من تراكيب لوما كا الترجمان وكأنهُ كتبهُ قبل وصول خبر الصلح الى الاسكندرية »

ولعل ما كتبهُ الجبرتي عن الحملة الفرنسوية في القطر المصري اوسع ما كُتب في هذا الموضوع واصحهُ . ويظهر منهُ ومما نشر من الكتب التي الفها العلماء الذين كانوا في الحملة الفرنسوية ان الاعمال العلمية التي عملها رجال نبوليون في القطر المصري كانت من اعظم الاعمال واوسعها واعمدها وهي اثر خالد يرجع اليهِ دواماً ومأثرة لنبوليون امتاز بها على كل الفاتحين في كل الاعصار والامصار ولاسيما اذا اعتبرت المدة القصيرة التي اقامها في مصر . وما فعلهُ نبوليون في مصر لا يعدُّ شيئاً في جنب ما فعلهُ بعد ذلك للعلم والعمران كما سيجيء